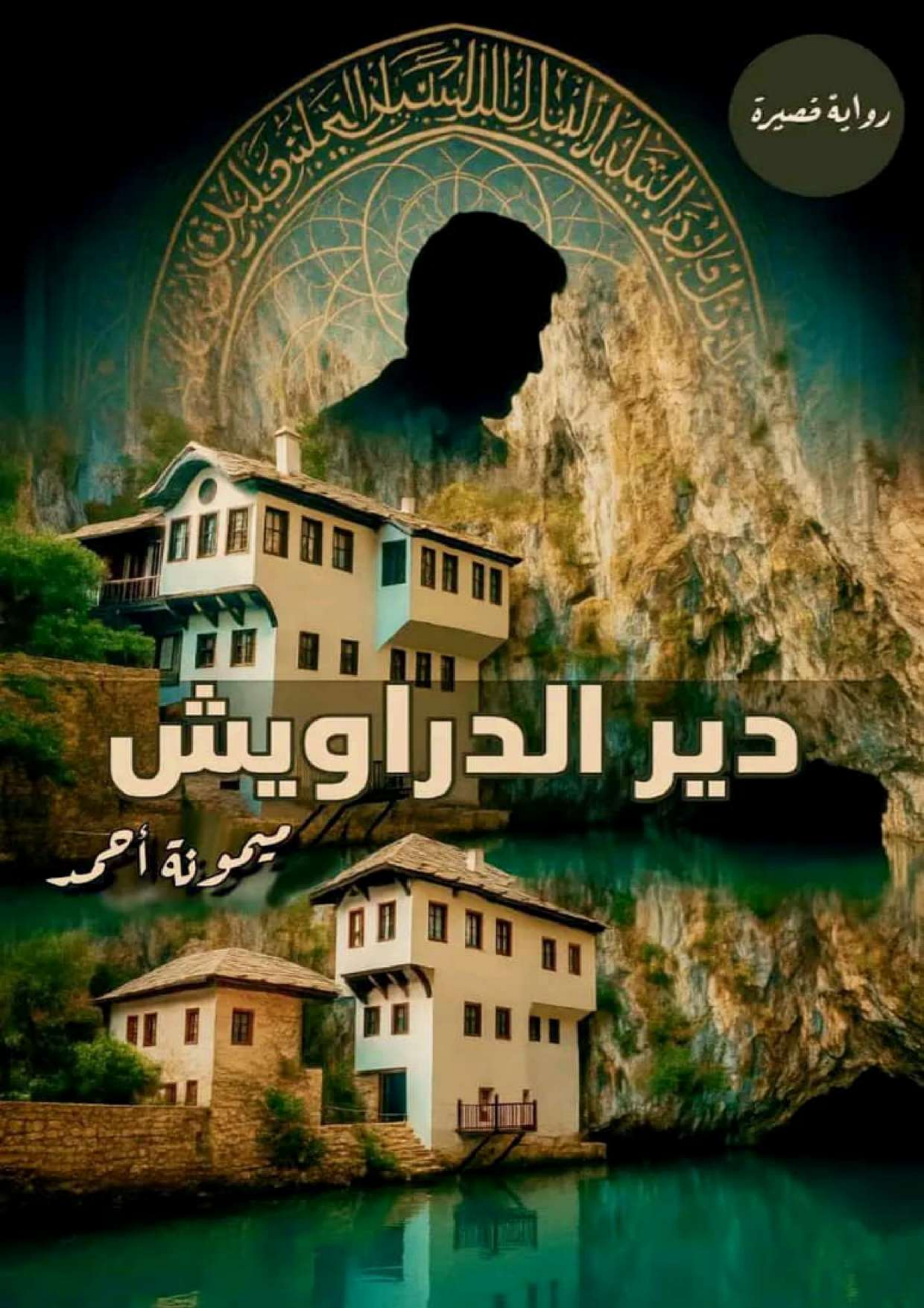
رواية قصيرة
دير الدراويش
ميمونة أحمد

رواية

دير الدراويش

كتابة :

ميمونة أحمد

تصميم الغلاف:

بسملة حسين شافعي

تنسيق:

آدم عادل

إِهْدَاءٌ

إلى صخبي الداخلي وشتاتي الفكري.

مش كفاية دوشة بقا؟

أمنحكما هذه الصفحات، لا حباً، بل هدنة مؤقتة.

علّ الحبر يُسكِت ما عجز عنه الصمت،

وعلّ الكلمات ترتّب فوضاكما ببعض من الرحمة.

إلى الذين يشبهونني في التيه،

إلى الذين لا يجدون أنفسهم إلا حين يضيعونها،

هذا الكتاب مرآتكم، صداه وربما مهربه.

فإن سقطت المعاني، وتعثرت الجمل،

اعذروا الكاتبة... كانت تحاول فقط أن تفهم نفسها.

إِهْدَاءٌ

بكلّ ما في القلب من ظلال وضياء،

وبكلّ ما في الروح من وجعٍ ورجاء،

إلى من لم يكن يومًا عابرًا في حياتي،

إلى الصوت الوحيد الذي لم يخن الصمت حين علا،

إلى العين التي رأتني حين عمِيَ الجميع،

إلى رفيق العزلة، وشريك الأسئلة،

إلى الصدق الذي لم يتنكّر لي يومًا في هذا العالم المتقلب،

إلى دفءٍ ظلّ حيًّا حين ماتت المعاني،

إلى عبد اللّه قُصّار...

صديقي الوحيد.

الإِهْدَاءُ الأَخِيرُ

إلى الذين يقرؤون هذه الحروف بقلوبهم، لا بأعينهم فقط،

إلى من أنصتوا لنبضي حين خذلني الصدى،

أهدي هذا النبض المكتوب، وكل ظلٍ مرّ على السطور، إليكم.

إلى من غرسوا في أيامي بذور الحلم،

وسقوها بصبرهم حين جفّت ينابيع الأمل،

لكم، بكل امتنان الروح، أُهدي هذا الكتاب.

وإن فرّقتنا الأيام، وتباعدت الطرق،

تذكروا أنني سطّرتني هنا لأبقى قريبة...

قريبة حدّ التنفّس، حتى في الغياب.

المُقَدِّمَةُ

فِي هٰذِهِ الْبُقْعَةِ الَّتِي تَئِنُّ بِذِكْرَى الْأَزْمِنَةِ الْمُتَعَاقِبَةِ، حَيْثُ تَنْحَتُ الْأَيَّامُ أَسْطُرَهَا عَلَى جُدْرَانٍ تآكَلَتْ مِنْ صَمْتِ الْقُرُونِ، وَحَيْثُ الْبِدَايَاتُ تَلْتَفُّ حَوْلَ النِّهَايَاتِ كَالْأَفَاعِي الْقَدَرِيَّةِ، وُجِدْتُ نَفْسِي قِطْعَةَ شِطْرَنْجٍ فِي لُعْبَةٍ لَمْ أَعْرِفْ قَوَانِينَهَا.

لَمْ تَكُنْ دُرُوبِي مَفْرُوشَةً بِالْيَاسَمِينِ، بَلْ كَانَتْ مَمَرَّاتٍ مِنْ شَظَايَا مَرَايَا، كُلُّ وَاحِدَةٍ تُرِينِي وَجْهًا آخَرَ لِذَاتِي الْمُتَشَظِّيَةِ.

تَعَلَّمْتُ أَنَّ الْأَيَّامَ لَا تَنْتَقِمُ، بَلْ تُجَرِّبُ، وَأَنَّ السُّقُوطَ لَيْسَ نِهَايَةً، بَلْ مِفْتَاحًا لِسِرٍّ كَانَ الْأَلَمُ حَارِسَهُ.

عَبَرْتُ زَمَنًا يَتَمَطَّى كَالْمَطَاطِ، وَسَمِعْتُ هَمْسَ الْجُدْرَانِ: «مَنْ يَنْحِتُ الْجِرَاحَ إِلَّا أَنْتَ؟!».

قَاوَمْتُ بِعِنَادٍ، حَتَّى إِذَا انْكَسَرَتْ أَضْلَاعِي تَحْتَ ثِقَلِ الْوَحْدَةِ، رَأَيْتُ نُورًا يَنْفُذُ مِنْ شَقٍّ فِي الْقُبَّةِ الْقَدِيمَةِ، فَفَهِمْتُ أَنَّ الْقُوَّةَ لَيْسَتْ فِي الصُّرَاخِ، بَلْ فِي اسْتِمَاعِ صَوْتِ الضَّوْءِ.

نَهَضْتُ... وَهَذِهِ الْمَرَّةَ كُنْتُ أَحْمِلُ بَيْنَ أَضْلَاعِي أَسَاطِيرَ الْمَكَانِ، وَأَعْرِفُ أَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ هِيَ إِمَّا دَمْعَةٌ عَلَى مَاضٍ، أَوْ بُذْرَةٌ لِغَدٍ.

الْآنَ، بَعْدَ أَنْ صِرْتُ جُزْءًا مِنْ تُرَابِ هٰذَا الْمَخْبَأِ الْقَدَرِيِّ، أَسْمَعُ دَنْدَنَةَ الدَّرَاوِيشِ تَمْزُجُ بَيْنَ صَرْخَاتِي وَأَنْغَامِهِمْ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الْحَقِيقَةَ لَيْسَتْ فِي الْوُقُوفِ أَمَامَ الْقَدَرِ، بَلْ فِي الدَّوَرَانِ مَعَهُ حَتَّى تَذُوبَ الْحُدُودُ.

هُنَا، فِي تُكِيَّةِ دَيْرِ الدَّرَاوِيشِ، حَيْثُ الْأَبْوَابُ لَا تُغْلَقُ، وَالزَّمَنُ يَرْقُصُ فِي دَائِرَةٍ لَا تَنْتَهِي.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الطَّرِيقُ إِلَى المَجْهُولِ

كانت رائحة الخبز الساخن تختلط بنكهة الزعتر والجبن المعتق.

المائدة المفروشة على طول السجاد الدمشقي العتيق تزفر دفء العائلة، وإن كانت مفككة من الداخل.

جلسوا كأنهم اعتادوا الجلوس، لا الحديث.

أصوات الملاعق على الصحون تُحاكي خفوت المطر على زجاج قديم، والسكوت بينهم لم يكن سلامًا، بل استسلامًا مؤقتًا لجبهة تُؤجّل صدامها كل صباح.

قطعت غادة، أم يونس، الصمت بسؤال بدا كطلقة:

«هل من جديد في أمر السفر؟ وماذا عن تصفية ما تبقّى من أعمالنا؟ هل أنهى المحامي إجراءاته؟»

رفع فارس رأسه من فوق فنجانه، نظر إليها بعينين جافتين من التعب، ثم قال ببطء كمن يمضغ جملاً لا يرغب بقوله:

«أعمالنا؟ أي أعمال؟ لقد أُغلق كل شيء يا غادة. وما تبقّى ليس سوى ركام، دفتر حسابات خاوٍ ووجوه لا تتذكر إلا ما نملك.»

نظرت إليه باستقامة لا تخلو من تحدٍّ، وقالت:

«إذن، ألا ترى أن بقاءنا في دمشق لم يعد سوى انتحار ناعم؟ كل من نعرفهم إما رحلوا أو يُحضّرون للرحيل. من يُراهن على حطام بلد لا يريد أبناءه؟»

تنهّد فارس، وأسند ظهره إلى المقعد كأن الحديث يسحبه نحو هوة يعرفها جيدًا:

«البيت ليس ملكًا للحسابات، البيت ذاكرة. أن أرحل يعني أن أخلع نفسي من جذوري، وأنا لا أقبل أن أكون لاجئًا في بلد لا يشبهني.»

قالت، وهي تشبك يديها فوق صدرها:

«الجذور لا تعني شيئًا إن بقيت مدفونة في أرض مسمومة. كرامتك هذه لن تحمي أبناءك من شيء. لن تحمي يونس، ولن تحمي يُمنى. أن تبقى في بلد تنهار فيه القيم والأمان، تلك خيانة بصمت.»

قال فارس، وقد علا صوته قليلًا:

«وأن نرحل كمن يُلقي إرثه في البحر، تلك ليست خيانة؟ إنهم يريدون لنا الرحيل، ونحن نُعطيهم ما يريدون بامتنان. أنا لن أرحل، ولن أبيع تاريخ عائلتي ليُكتب على يد جلاد جديد.»

فجأة، اخترق حديثهم صوت الكرسي يُسحب من مكانه.

التفتا، فإذا بيونس يدخل إلى المائدة، متأخرًا كعادته، بملامح لا تعبّر عن شيء. جلس دون أن يُلقي السلام، أمسك كوب الشاي، وبدأ يرتشفه ببطء، وكأنه يختبر طعم البقاء.

تبادلت نظرات والديه لحظةً، ثم انفجرت غادة نحوه، وكأنها كانت تنتظر حضوره لتقذف ما احتبس:

«قل لي يا يونس، ألن تنطق بكلمة؟ ألا يعنيك ما يجري؟ إلى متى ستبقى صامتًا وكأنك ضيف بيننا؟»

رفع يونس نظره إليها، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

«أنا؟ ما الجديد لأقوله؟ كل صباح نعيد المشهد نفسه. جدل لا ينتهي، ومواقف لا تتغير، ثم نذهب كلٌّ إلى جزيرته ونكمل يومنا كأن شيئًا لم يكن.»

ردّت غادة بنبرة منخفضة لكنها مثقلة برجاء دفين:

«أنا لا أطلب منك أن تكون وسيطًا، فقط أريد أن أعرف... ماذا تريد؟ ما قرارك حول الأمر؟»

ابتسم يونس بمرارة، وحرّك الملعقة داخل فنجانه كمن يثير غبارًا في قاعه:

«قراري؟ حسنًا، أنا مسافر، سأغيب شهرًا بأنطاليا. أصدقائي هناك، نحتفل بعيد ميلادي. ورجاءَ، لا تتصلوا بي، لا ترسلوا لي نصائح، ولا تسألوا متى أعود. أحتاج مساحة... أحتاج أن أتنفّس خارج هذه البلاد الخانقة.»

ساد الصمت لحظات، ثم تلاقت نظرات فارس وغادة فوق رأسه، كأنهما يبحثان في قسماته عن ابنٍ يعرفانه واختفى.

وقف يونس، حمل كوبه، ثم قال هامسًا: «بالعافية، عن إذنكما.»

تركهم، والمائدة خالية حتى من صوت الملاعق.

صعد الدرج بخطوات بطيئة لكنها ثابتة، وفي منتصف الرواق، توقف عند بابٍ موارب، يتسلل منه صوت ضحكات ناعمة.

كانت يُمنى، أخته الصغيرة، ممدّدة على السرير، تقلب هاتفها بين الصور والمكالمات، تبتسم لشاشة لا تعكس أي حرب.

همس في نفسه بضيق:

«نحن لا نعيش تحت سقفٍ واحد... بل في جزرٍ منفصلة.»

دخل غرفته، سحب حقيبته الجلدية من أعلى الخزانة، رماها فوق السرير، وبدأ يطوي ملابسه بحركات ميكانيكية، كما لو أن عقله في مكان آخر.

أخرج قمصانًا من حرير بيروتي، نظارات شمس ماركاتها أوروبية، وكأن الترف هو الحاجز الأخير بينه وبين الانهيار.

وحين فتح درجًا جانبيًّا ليأخذ مشطًا، سقطت صورة. انحنى، التقطها، وحدّق فيها مطولًا.

كانت ضحكته فيها عريضة، وذراعه تطوّق خصر فتاة ذات وجه خجول وعينين غارقتين بالحب.

همس: «لبنى!»

الاسم صفعه من الداخل.

الخطيئة لم تغادر ذاكرته، بل نامت في ركن هادئ.

ذلك اليوم حين قالت له:

«أنا حامل»

وهو ردّ ببساطة دونية:

«أنتِ لا تليقين بمستوانا.»

قبض على الصورة كأنها تهرب من يده، ثم أعادها للدرج كما يعود الذنب إلى مكانه في القلب دون أن يُغادر.

همس متنهدًا دون أن ينظر:

«لا بأس... صفحة طُويت.»

أغلق الحقيبة برفق، كما تُغلق دفاتر الذكريات دون نية للعودة. حملها بيد واحدة، ونزل الدرج بخطى هادئة.

كان البيت ساكنًا فجأة، كأنّ الجدال الذي ملأه منذ دقائق قد أُغلق بين الجدران، وترك وراءه صدىً بلا أصل.

في بهو القصر، التقت به الخادمة العجوز فريدة، ، عيناها المتعبتان تراقبانه بصمت.

قالت بهدوء:

«مسافر، أليس كذلك؟»

أومأ دون أن يتوقف، وخرج.

في السيارة، جلس خلف المقود، وأدار المحرك.

الأغنية الأولى التي انطلقت من هاتفه كانت لأصالة، صوتها متشظٍّ، يهمس من جراح قديمة:

«مين فينا كان الظالم؟ ومين اتظلم؟»

ضحك يونس لنفسه، وعلّق بصوت خافت: «كلنا ظلمة... وكلنا ظُلمنا...»

فتح واتساب، واختار محادثة أصدقائه، وضغط على زر الاتصال الجماعي. مرت ثوانٍ وظهر وجه براق أولًا. كان يضحك من قلب نادٍ على البحر، وخلفه النهار يغرق في زرقة كثيفة.

تحدث براق إليه بالتركية، صوته مبحوح ومترع باللامبالاة:

«هل وصلت؟ لقد حجزنا لك جناحًا يغير من حالتك تلك، أيضِا وكافيار. عيد ميلاد دون كافيار إهانة أرستقراطية، يا باشا!»

ظهر أركان بجانبه، يرفع كأسه ويشير إلى مؤيد الذي يجلس على مسافة، وتحدث بتركية ذات لكنة جنوبية، ضاحكًا باستهزاء:

«ليأتِ فتى الشام معه بالشاورما السورية، فالكافيار لا يُشبع الفقراء، ولا يناسبهم.»

ضحك مؤيد ضحكة قصيرة، وفي عينيه ظلٌّ لا يُشبه المرح:

«جلبت لكم من الذكاء ما يكفي لصنع ثروة، فقط اهتموا بالمال.»

تبادل براق وأركان نظرات جانبية، ثم تابع براق ساخرًا:

«الذكاء؟ يا رجل، ما قيمة الذكاء إذا كنت قد أتيت في الأصل لاجئًا في حقيبة سفر؟»

اتسعت ابتسامة أركان، وقال بنبرة خافتة، وهو يغمز لبراق:

«على الأقل هو ذكي بما يكفي ليتطفل على بلادنا دون أن يُقتل على الحدود.»

في هذه اللحظة، خفّت ابتسامة يونس، وبدا كأنه ينظر إلى مكان بعيد لا تراه الكاميرا.

ارتفع حاجباه للحظة، ثم قال بصوت هادئ وهو يحاول إخفاء انزعاجه:

«مهلًا شباب، أنا أفضّل الكباب... النبيذ الفرنسي ممل للغاية.»

قالها بالتركية، بلكنة عربية خفيفة، كأنه يرسل رسالة لا تُفهم بالكلمات.

الضحكات تلاحقت من الطرف الآخر، لكنها لم تلامس قلبه. كانت مثل ضوء مصابيح النيون باردة، اصطناعية، لا تصنع دفئًا. أغمض عينيه لثوانٍ، ثم تنفّس ببطء، وقال بنبرة واضحة لكن منخفضة:

«يا شباب، التغطية ضعيفة، أراكم عندما أصل غدًا، إلى اللقاء.»

أغلق المكالمة بضغطة خافتة، كأنّه يطوي بابًا آخر لا يريد العودة إليه.

ثم أدار قرص الصوت حتى ارتجّت النوافذ، وترك نفسه يغرق في الموجة الأولى من اللحن.

اختار أغنية قديمة من تَركان، شيء من مقامٍ تركي كلاسيكي، فيه ما يكفي من الحنين لينكأ الجروح القديمة دون أن يداويها.

رمق هاتفه المستلقي على المقعد المجاور، كجثة صامتة، ثم نظر إلى المرآة للحظة خاطفة. لم يكن يتأكد من شعره، أو مظهره. كان يتحقق من ملامحه، يتساءل: هل ما زال هذا الوجه له؟ هل ما زال هذا التعبير يعرفه؟

كان صوته الداخلي يغرق شيئًا فشيئًا في سطور الأغنية، كأنها تقول له ما لم يستطع قوله بصوته هو:

«هل كل هذا لك؟!»

«من جديد، ينتظرني الخذلان...»

«من جديد، ينتظرني الشوق...»

«لكن لا بأس...»

«لقد اعتدتُ على ذلك»

«من جديد، يئن قلبي...»

«ينكسر فؤادي...»

«لكن لا بأس...»

«لقد اعتدتُ على...»

ارتجف صوته مع المقطع الأخير، كأنه يردّده من داخله، لا من فمه.

كانت الأغنية لا تُسمع فقط، بل تُحسّ، تُغرس في صدره كإبرة طويلة، كل نغمة منها تنغرز وتدور.

ولوهلة... شعر أنه يذوب، لا مع الموسيقى، بل مع الكلمات نفسها، مع ثقل المعنى في كل فاصلة وصدى.

لكن شيئًا ما أيقظه فجأة. الطريق أمامه لم يعد مستقيمًا. كان يتلوى، كما لو أنه يسير على نهر جاف، لا إسفلت.

أفلت من الطريق السريع بلا تفكير، انعطف نحو طريق فرعيّ لا يعرفه. قرب الحدود التركية، حيث التلال أكثر خضرة، والهواء أكثر برودة، وأكثر حيادًا.

كان يريد أن يشعر... بشيء... أي شيء.

أن يدخل في اللحظة من شقّ ما، أن ينفذ منه الحنين، أو الغضب، أو حتى الدمع. لكن لا شيء. كل ما في صدره مجوّف، كأن المشاعر ذاتها هجرت الجسد.

ثم... حدث الانزلاق.

في لحظة صماء، انزلقت السيارة كسمكة مذعورة فوق الوحل، وصوت الطين تحت العجلات تحوّل إلى صرير حادّ، كأن الحديد يئنّ من الفزع.

ضغط على الفرامل. مرة. مرتين. لكن لا استجابة. توقفت السيارة أخيرًا، لا بانضباط، بل باستسلام. غرقت في بركة موحلة حتى منتصف العجلات.

الموسيقى ما تزال تعلو، وهو ما يزال يحدق أمامه. لا يرى شيئًا. ولا يريد أن يرى.

صرخ، والضيق يعصف بصوته:

«تبًا، ما هذا القرف؟!»

نزل، ركض حول السيارة، ركل الأرض كأنها مذنبة، ثم انحنى. حاول أن يدفعها بيديه، بكل ما بقي فيه من عناد.لكن العجلات غاصت أعمق، كأن الطريق نفسه يبتلعه.

الوحل كان كثيفًا، ثقيلاً، متراكمًا من أيام المطر القديمة... يشبه تمامًا ما يشعر به. أثقال لم تجد تصريفًا، تمسّكت به.

تراجع، زفر بقوة، كأن صدره لم يعد يتّسع لما فيه.

مدّ يده إلى الهاتف، فكر بالاتصال بأيّ أحد، أيّ أحد فقط ليقول:

«أنا هنا..»

لكن الهاتف انزلق من أصابعه كما لو أنه نافرٌ منه، سقط على الأرض المبلّلة، تهشّمت شاشته في صوت قصير... لكن مدوٍ. كسر إضافي... كأن الأشياء تتواطأ معه لتتحطم بالتتابع. نظر حوله... لا أحد. لا تغطية، لا سيارات، لا طريق يعود من حيث أتى.

فقط الحقول، وأصوات الحشرات، وغروب يزحف بثقلٍ من وراء التلال، كما لو أن النهار نفسه يتوارى، خجلاً من المشهد.

جلس على غطاء المحرك، أنزل قدميه كأنما يجلس على حافة عالم، لا على سيارة معطلة عالقة.

أخرج سيجارة، أشعلها ببطء، وسحب أول نفس كمن ينتظر علامة، أو هداية، أو صفعة من القدر. لكن لم تأتِ.

لا شيء يأتي...

لا رسالة، لا صوت، لا فكرة واضحة...

فقط الصمت... هو والعراء.

نصفه مغطى بالطين، ونصفه الآخر بالخذلان.

كان كمن شُطر إلى نصفين.

نصفٌ يريد النجاة، والنصف الآخر لم يعد يريد شيئًا على الإطلاق.

حاول أن ينسج أفكارًا تهديه، لكن التراكمات كانت أسرع.

الماضي داهمه بلا صوت.

غمره شعور قديم، قديم جدًا، لم يعرف له اسمًا، لكنه يعرف هذا الطعم...

المرارة التي لا تشبه شيئًا آخر.

غمغم هامسًا، كمن اكتشف شيئًا:

«ربما... هذا ما كنت أهرب منه... أن أترك وجهًا لوجه مع نفسي.»

الفَصْلُ الثَّانِي

الوُصُولُ إِلَى الدَّيْرِ الغَامِضِ

لم يكن الطريق طريقًا بالمعنى المعروف، بل ندبة ممتدة على جسد الريف، أثرًا هشًّا لخطواتِ تعبت من العودة.

بين الأشجار المعراة والضباب الكثيف، كان يونس يتقدم ببطء، قدماه تغوصان أحيانًا في الوحل، وكتفاه مائلتان من ثقل الوحدة.

كانت كل خطوة يخطوها كأنها اقتراحٌ خفي للتراجع، لكنه ظل يمضي.

الهواء بارد، يتسلل إلى صدره كأنفاس الماضي، والسماء المائلة للزرقة تلفّ الأفق بضوء مبلّل بالحزن.

في داخله، صمتٌ صاخب، كأن الأسئلة المعلّقة تتراكم على أضلاعه كالرطوبة في الجدران.

ثم ظهرت البحيرة، بلا تمهيد، كأنها انبثقت من حلم. سطحها ساكن كموتِ مؤجل، وعلى ضفتها، انتصب مبنى حجري يكسوه الطحلب كجلد العُمر، ونوافذه تومض كجفونٍ بين النوم والصحوة.

اقترب يونس بتردد، وعيناه على لافتة خشبية كتبت بالتركية

على الطريقة العثمانية:

"Tekke – Dervişler Manastırı"

همس كمن يقرأ نبوءة: «تكية؟ دير دراويش؟!»

مدّ يده ببطء إلى المقبض الخشبي. كان دافئًا على غير المتوقع، كأن أحدهم لمسه للتو.

دفع الباب براحته، فانفتح ببطء، مُصدرًا أنينًا يشبه تنهيدة شيخٍ عجوز تعب من الانتظار.

في الداخل، أضواء زيتية خافتة تتراقص على الجدران الطينية، وظلال أجساد ساكنة تجلس القرفصاء في دوائر، يهمهمون بهدوء كأنهم يصلّون بصمت.

الجو مشبع بخشوع عتيق، لا يُشبه صلاةً معتادة بل يُشبه ترقّبًا صامتًا.

تراجع يونس خطوة، لكن صوتًا عميقًا وناعمًا كنسمة شتاء قال:

«ادخل... الباب لا يُفتح عبثًا.»

توقفت قدماه، وجال بعينيه نحو الصوت، كان هناك رجلٌ بلحية بيضاء، جالس القرفصاء على سجادة كتان، عيناه مغمضتان، وملامحه مطمئنة على نحو غريب.

قال يونس، وصوته مرتجف:

«سيارتي تعطلت، لا تغطية للهاتف، و... كنت أبحث عن قرية قريبة.»

فتح الشيخ عينيه ببطء، سوداوان عميقتان كغسق الأناضول: «والقرية وجدتك، ادخل.»

دخل يونس ببطء، خطواته خفيفة على الأرض، لكن توتره ثقيل.

لفّ ذراعيه حول جسده المتجمد، تطلع حوله بريبة، ثم تمتم ساخراً:

«بحقّ الله، من أنتم؟ رهبان؟ دراويش؟ مجانين؟ أم شيء آخر لا اسم له؟!»

تبادلت النظرات بين الدراويش، لكنها كانت نظرات يغلفها الصمت العارف. أما الشيخ، فتنهد تنهدًا خفيفًا وقال:

«نحن من اختاروا الصمت، حين صار العالم ضجيجًا لا يُحتمل.»

قال يونس بنفاد صبر:

«أنا لا أبحث عن مبيت أو حكمة ضائعة بينكم. فقط أريد هاتفًا، أو وسيلة نقل.»

رد الشيخ بنفس النبرة الهادئة:

«هنا لا يُقال: فقط. كل طلب يحمل خلفه ما هو أعمق. الهاتف لا يُقيم بيننا، والمركبات تمر كما تمر الأحلام، نادرة، وبدون موعد.»

ضحك يونس ضحكة قصيرة ومتوترة:

«مسرحية تاريخية؟ في أي قرن تعيشون؟»

صمتٌ طويل. لم يرد أحد. عندها أشار الشيخ إلياس بسبابته إلى أحد الفتيان: «زاهد، أحضر عزام أفندي.»

أومأ زاهد برأسه، وتقدّم بخطى واثقة نحو باب جانبي وفتحه برفق.

بعد لحظة، دخل عزام أفندي، رجل خمسيني بوجهِ يحمل علامات الخسارة، يحمل صينية خشبية فوقها إبريق نحاسي وخبز وزيت وزيتون.

تقدّم بخطى هادئة ووضعها أمام يونس، ثم انحنى قليلًا، وانسحب دون أن يتحدث.

قال الشيخ إلياس:

«في كل ليلة نترك للضيف ما يسدّ جوع الجسد، فإن بقي جوعٌ آخر، فليحدّثنا به حين يهدأ.»

رد يونس بتهكم:

«وأنا لا أجوع إلا لأجوبة.»

لم يُعلّق الشيخ، بل أغمض عينيه كأن يونس لم يقل شيئًا. وفجأة، بدأت الهمهمات تتصاعد، تتحول إلى ترانيم، ثم إلى ذكر جماعي رتيب لأسماء الله الحسنى.

أصواتهم لم تكن مرتفعة، لكنها تخللت صدر يونس كدقات قلبٍ جديدة لا يعرفها.

كان يراقبهم، متسمرًا في مكانه. أحسّ بشيء يتحرّك في داخله، كأن جسده يتنبه لصوتٍ نسيه منذ زمن.

ثم أشار الشيخ إلياس بخفة، فتفرق الدراويش إلى أركان المكان، كلٌّ يعود إلى مهمته بهدوء.

جلس الشيخ على حصيرة في ركن مظلل، وفتح مصحفًا صغيرًا.

بقي يونس في مكانه، أكمل طعامه على مهل، ثم رفع نظره ليرى شابًا يقترب منه بخطوات صامتة.

قال بلطف:

«أنا زاهد، الشيخ يقول إن شئت، لك مبيت في غرفة الضيف.»

رفع يونس حاجبيه بسخرية:

«ما دام هذا طعامكم، فأظن غرفة الضيف حفرة فيها حصيرة، أليس كذلك؟»

ابتسم زاهد دون أن يفقد هدوءه:

«ربما، لكنها حفرة لا يسقط فيها إلا من تعب من السطح.»

أشار له زاهد بالتقدّم، وسار أمامه بخطوات خفيفة حتى وصلا إلى غرفة جانبية. فتح الباب بخشوع، وأشار له بالدخول.

كانت الغرفة ضيقة، جدرانها ترابية، الأرض مفروشة بحصيرة من القش، وبجانبها بطانية مطوية، شمعة وُضعت فوق رف خشبي بجانبها مصحف ومسبحة، لا مرآة، لا ساعة، لا كهرباء.

قال زاهد

«هنا، لا شيء يلهيك عنك.»

تلفت يونس للحظة، ثم قال:

«الهرب جريمة؟»

رد زاهد وهو يهمّ بالخروج:

«ليس الهرب، بل إلى أين تهرب، المكان يُعرّي، لا ملاذ فيه سوى الصدق.»

وقف يونس لحظة في مكانه، ثم قال متهكمًا:

«أشكر شيخك غريب الأطوار على الضيافة. سأقضي ليلتي في السيارة.»

استدار، وخرج بخطى متسارعة، وكأن الأرض تحت قدميه تضيق.

عاد إلى السيارة، فتح الباب بعنف، وجلس خلف المقود. أدار المحرك مرّتين، ثم ضرب المقود بكفه، وأطفأه.

المطر بدأ يطرق الزجاج برتابة، قفل الأبواب، وتمدد في المقعد الخلفي، سحب معطفه فوق جسده، وأغمض عينيه. لم يحتج وقتًا طويلًا لينزلق في الحلم...

الظلام يحيط به، صوت الطين يبتلع خطواته، أمامه قبر مفتوح، وأمه داخله، تمد يديها، تبكي دون صوت:

«يونس... خذني معك، لا تتركني هنا.»

ثم ظهر والده، وسط بحيرة من دم، يضرب سطحها بيديه: «كيف أخرج من هنا؟ دلني... يا ابني.»

ومن خلفهما، ظهرت لبنى، بثوب أبيض، ووجه كُسيت ملامحه بالحزن:

«تركتني وأنا في قاع الحاجة إليك... هل الهرب شجاعة؟»

صرخ يونس:

«لا أعرف الطريق! لا أعرف!»

استيقظ، والعرق بارد يغطي وجهه.

المطر يضرب الزجاج بعنف، فتح الباب فجأة، وركض وسط الطين والمطر. خطواته تتبع أنفاسه اللاهثة، كأن الأرض تحاول ابتلاعه، لكنه ظل يجري.

وصل باب التكية، دفعه بيده، فانفتح.

في الداخل، الضوء لم يتغير، الشيخ إلياس يجلس في مكانه، وزاهد يقرأ في ركنه.

قال الشيخ بهدوء:

«هل وجدت ما لم تبحث عنه؟»

أجاب يونس بصوت مبحوح:

«الغرفة... هل ما تزال هناك؟»

قال الشيخ:

«الغرف لا ترحل... الذي يرحل هو من يتجاهل النداء.»

تقدّم يونس إلى الداخل، مر بجانب زاهد، الذي رفع عينيه وقال بابتسامة هادئة:

«أهلاً بالعودة، يا رفيق.»

دخل الغرفة، كانت كما تركها، الشمعة تضيء بخفوت، البطانية كما هي، جلس، ثم تمدد، وغطى جسده بالبطانية.

جسده ما زال يرتجف، لكن هناك دفئًا غريبًا ينساب تحت جلده. خليطٌ من الرهبة والسكينة، كما لو أن الغرفة احتضنته بهدوء الأم.

قال لنفسه، هامسًا:

«لا بأس... فقط هذه الليلة.»

في الخارج، كان المطر يزداد، وعلى نوافذ التكية، قطرات المطر تنقر الزجاج بإيقاعٍ يشبه نبضًا غامضًا.

وفي الظلمة، جلس الشيخ إلياس، مسبحته بين أنامله، وعيناه نصف مغمضتين، ثم تمتم بصوته الدافئ:

«من نام هنا مرة... يصحو مرتين.»

الفَصْلُ الثَّالِثُ

تَصَدُّعُ القَنَاعَاتِ

فتح يونس عينيه ببطء، وهو يرمش كما لو أنه استيقظ من غيبوبة طويلة.

سقف الغرفة الطيني ظلّ كما هو، والشمعة التي خمد ضوءها في الليل تركت ظلًا باهتًا على الجدار.

تمدد على الحصيرة للحظة، حاول أن يستجمع نفسه، فداهمه شعورٌ ثقيل لم يستطع تسميته، لا هو غربة، ولا راحة، بل خليط غريب بين الطمأنينة والانفصال.

نهض، وفتح باب الغرفة بهدوء، الهواء البارد لفح وجهه، ورائحة الخبز الطازج والبخور تسللت إليه كتحية صباحية لا تشبه ما اعتاده.

خرج إلى ساحة التكية، وكانت الشمس قد ارتفعت قليلًا فوق الأشجار. لم يكن المكان كما تركه في الليلة الماضية، كل شيء يتحرك في صمت، كل درويش في مكانه، يؤدي مهمته بدقة تشبه الطقس.

في زاوية الساحة، كان عزام أفندي ينظف أدوات المطبخ الخشبية بنوع من التأمل، بينما كان مالك يحمل أكياس طحين ويدخلها إلى بيت النار، وجهه مبلل بالعرق، لكنه مطمئن.

زاهد يكنس الأرض بنشاط، وهو يدندن ترنيمة لا يُعرف إن كانت أنشودة أم دعاء.

أما شاهين، فكان يجلس في زاوية، يقطع الأعشاب الطبية بعناية، وينظر إلى الورق كما لو أنه يقرأ فيه أسرار الشفاء. كل شيء بدا وكأنه يدور في نظام خفي، لا يحتاج إلى أوامر

اقترب يونس من الباب الكبير المؤدي إلى القاعة، ثم التفت سريعًا وهو يهرول نحو مدخل التكية حيث رأى الشيخ إلياس يخرج من أحد الممرات الداخلية.

قال بلهجة مستعجلة وهو يلوّح بيده:

«سيدي... شيخي، هل أستطيع الحديث معك؟»

توقف الشيخ، وابتسم بتروٍ كأنّه يعرف ما سيَقال قبل أن يُقال.

قال يونس وهو يقف أمامه متوترًا:

«سيارتي، أتحدث عن سيارتي، هل يوجد أحد يمكنه إصلاحها؟ أو ربما قرية قريبة أستطيع أن أستعين فيها بورشة؟»

قبل أن يجيب الشيخ، ظهر رجل يقترب من البوابة الخارجية، يحمل على ظهره قفصًا صغيراً وأكياسًا مربوطة بالحبال.

كان جلال، الرجل المسؤول عن توريد المؤن إلى التكية.

صاح زاهد من الداخل:

«صباح الخير يا جلال أفندي!»

لوّح جلال بيده وهو يقترب:

«وصباح الرضى لكم! يبدو أنني وصلت في وقت الحديث الجدي.»

تبادل نظرة سريعة مع يونس، ثم قال وهو يضع القفص أرضًا:

«هل تبحث عن ميكانيكي؟ لن تجده هنا، يا فتى، أقرب ميكانيكي يأتي إلى القرية المجاورة مرة كل شهر، لتصليح آلات الزراعة، وغالبًا لا يأتي إلا إن استدعاه رئيس البلدية.»

يونس قطّب حاجبيه:

«ماذا تعني؟ لا يوجد طريقة للخروج من هنا؟»

ابتسم جلال ببرود:

«إن كنت تملك خريطة وساقين قويتين، فبإمكانك المشي يومًا ونصف حتى تصل إلى أقرب طريق مأهول.»

تراجع يونس خطوة إلى الوراء، وشهق كأنه تلقى لكمة خفية: «إذاً أنا... محبوس؟ رهينة؟!»

وضع الشيخ إلياس يده على كتف يونس بلطف، وقال:

«بل ضيف، والضيف يُكرم ما دام لم يختر أن يغادر، نحن لا نحبس أحدًا... بل ننتظر أن يعود بنفسه.»

قال يونس وهو يضحك بمرارة:

«جميل، صرت الآن سجين روحي في دير لا يوجد فيه حتى إشارة هاتف.»

وقبل أن ينصرف، التفت إليه جلال بتردد:

«لكن... قل لي، كيف وصلت سيارتك إلى الأرض المجاورة للتكية؟ أعني... لا طريق مباشر هنا، أنا أنقل كل شيء يدويًا، بعربة خشبية صغيرة، الأرض محاطة بهضاب من جهة، وبحيرة من الجهة الأخرى، حتى الخيول لا تصل بسهولة.»

توقف يونس، أدار وجهه نحو جلال، وانعقد حاجباه بحيرة: «انزلقت... كانت تمطر، والطريق موحل... لا أعرف كيف، لكنها انزلقت مع الطين... لا بد أن الأمر حصل صدفة.»

هزّ جلال رأسه، وصوته خفيض لكنه واثق:

«أنا لا أؤمن بالصدف، كل شيء في هذا العالم تشابك من أقدار، ربما قدرك قادك إلى هنا، لسبب لا يعلمه إلا الله.»

نظر يونس إليه طويلًا، لكنّه لم يرد، في داخله، شيء ما بدأ يهتز.

كانت الأيام تتوالى بين ليلٍ بطيء ونهارٍ أكثر بطئًا.

الليل في التكية ليس سكونًا فقط، بل كأنّه مرايا معلقة فوق الروح، تعكس صمتها وتعيده أكثر حدّة.

والنهار لا يبدأ بضوء الشمس، بل بخطى الدراويش، بحفيف أقدامهم على الأرض، وبصوت الماء يصبّ في الأحواض.

يونس كان يراقب تعاقب الضوء والظل كما لو أنه لا يحدث في الخارج فقط، بل يحدث فيه، كل فجر كان يشعر بأنه يصحو قليلًا، وكل غروب، كأنه يدفن شيئًا لا يعرفه تمامًا، لم تعد الأيام تُقاس بالساعات، بل بالشعور، كم من ذاته زال، وكم منها تبقّى.

في مساء، وبينما كانت الظلال تطول فوق أحجار الساحة، جاءه زاهد وهمس إليه:

«الليلة... حلقة القصص، سيقصّ الشيخ حكاية من سيرة الأنبياء، كما يفعل كل خميس، تعال، إن أردت أن تسمع ما لا يُقال إلا مرة.»

لم يرد يونس، لكنه تبعه بخطى حذرة، دخل القاعة، فوجد الدراويش قد جلسوا في نصف دائرة قرب التنور، الجمر متوهج، والدخان يصعد في خطوطٍ متعرجة.

كان الشيخ إلياس يجلس في منتصف الدائرة، بوجهه الذي تلونه ألسنة اللهب، ويده تمسك بسبحة قديمة.

قال الشيخ بصوت رخيم:

«كان هناك نبي، دعاه الله أن يبني سفينة في أرض لا بحر فيها، الناس سخروا، والريح سكنت، والسماء لم تمطر، لكنه أطاع ،"نوح"، لم يفهم، لكنه آمن، ظلّ يبني، ولوح الناس من بعيد بأصابعهم ضحكًا.

لكنه لم يرد، ثم، في لحظة لا يتوقعها أحد، انفتحت أبواب السماء، وفاضت الينابيع.

الذين ضحكوا، سبحوا في الهلاك، والسفينة التي بُنيت في الجفاف، أصبحت طوق النجاة. »

«القصة ليست عن السفينة، بل عن الثقة، عن الطاعة التي لا تبتغي عوضًا، عن الإيمان الذي لا ينتظر التصفيق.»

سكت، وأغمض عينيه، ثم قال:

«كل منكم لديه طوفانه... وسفينته، لكن السفينة لا تُبنى حين ترى الطوفان، بل قبله، حين يكون اليقين أغرب من الشك.»

ظل يونس ساكنًا في مكانه، وعيناه على الجمر. لم يتكلم. لكنه شعر بشيء يتحرك تحت جلده، كما لو أن قصة من ألف عام كانت تُقال له وحده.

كان الوقت هنا لا يُقاس بساعات الحائط، بل بخفة الأرواح حين تنسجم.

يومًا بعد آخر، بدأ يونس يدرك أنه لم يعد غريبًا تمامًا.

الدراويش لم يرحبوا به بكلمات، بل بحركة كتف حين يمر، بنظرة قصيرة ثم عودة إلى الصمت.

وشيئًا فشيئًا، صار يقف في الصف ذاته، يحمل معهم، ينظف معهم، يتعب معهم.

كان يستغرب كيف يُقال كثير دون أن يُنطق. وفي هذا الصمت، عرف أن الروح لا تحتاج إلى شرح، بل إلى صدق.

جلس طويلًا عند حافة الساحة، يراقب الدراويش وهم يعملون.

تكرّر المشهد أمامه كفيلم لا يتغير، شاهين يقطع الأعشاب، مالك ينقل الخشب، زاهد يغسل الأرضية، وعزام يطهو الطعام.

قال لنفسه وهو يتمطى:

«يا إلهي... كم هو ممل هذا المكان. يومٌ كامل وأنا أراقبهم، لا تلفاز، لا أخبار، لا شيء، كيف يمكن لهؤلاء أن يعيشوا هكذا؟»

اقترب من الشيخ إلياس، وقال بنبرة ضجر:

«سيدي... ألا يوجد شيء أفعله؟ أشعر بأن الوقت يلتهمني.»

رد الشيخ دون أن يلتفت:

«إن لم تقتل الوقت بالخدمة، سيقتلك هو بالسأم.

قال يونس بسرعة:

«لكن... ألم تقل إنني ضيف؟ والضيف لا يُطلب منه أن يعمل.»

ابتسم الشيخ:

«والضيف الذي يطيل البقاء، يصبح من أهل البيت... أو من عابري القلوب، الخدمة لا تُطلب، بل تُكتشف.»

تذكر يونس قصة النبي نوح. قال بصوت أقرب إلى الهمس: «حسنًا... سأجرب».

ابتسم الشيخ، ونهض بهدوء:

« ابدأ بلباسك... لا تعمل بقمصان الأثرياء، تعرّ من الترف أولًا.»

رفع يونس حاجبيه:

«تريدني أن أرتدي مثلهم؟!»

رد الشيخ:

«بل أريدك أن ترى نفسك حين لا تتزين.»

هزّ يونس رأسه، وهمّ بالرفض، لكن في اليوم ذاته، تمزق أحد قمصانه الحريرية أثناء حمله لكيس ثقيل من الحطب، فاضطر على مضض إلى ارتداء عباءة رمادية أعطاها له زاهد.

شعر بالضيق، لكنه لم يعترض. كان كل شيء بداخله يذوب، دون أن يفهم كيف.

في ظهيرة أخرى، وبينما كانت الشمس تلامس الجدران بحنان، طلب من مالك أن يساعده في ترتيب القاعة القديمة.

حملوا الأفرشة بصمت، ولم يكن في المكان سوى صوت احتكاك الأقمشة.

قال يونس فجأة:

«مالك... لماذا أنت هنا؟»

رد مالك بصوت خافت، دون أن ينظر إليه:

«زوجتي ماتت في حادث، وكنت السبب، كنت أسوق وأنا سكران، عرفت هنا، أن هناك حياة بعد الندم... اسمها التوبة.»

أراد يونس أن يرد، لكنه صمت، لأول مرة، لم يجد ما يقوله.

في الليل، حين خمدت الأنوار، وهدأت الساحة، عاد يونس إلى غرفته، تمدد على الحصيرة، وغطى جسده بعباءته الجديدة، لكن النوم لم يأتِ.

بدأت ذاكرته تُفتح فجأة، كأن أحدهم أزاح عنها غبارًا كثيفًا.

رأى نفسه طفلًا، ينظر من شرفة منزله العالي على فقراء الحي وهم يقفون في طوابير الخبز.

تذكّر صوت والده وهو يقول: «أولئك خُلقوا ليعملوا لدينا.»

تذكّر أصدقاءه في الجامعة، كيف كان يستغل مؤيد ليشرح له ويحل له الواجبات، ثم يسخر منه أمام الآخرين.

تذكّر وجهها، هي التي أحبته بصدق، ثم تركها لأنها لم تكن من طبقته، ثم علم بحملها... وهرب.

الذكريات لم تعد صورًا، بل مشاعر والصدمة لم تكن في ما رآه، بل في إدراكه أنه كان يرى كل هذا من قبل، لكنه اختار ألا يشعر.

وفي المساء، سمع صوت عزام أفندي يردد بيتًا صوفيًا قديمًا: «من لم يذق مرارة الفقد، لن يعرف لذة الوجود.»

ردده يونس بينه وبين نفسه، كأنه للمرة الأولى، بدأ يفهم طعم المرارة... وشيئًا يسير به نحو تلك اللذة الغامضة.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

بُذُورُ التَّحَوُّلِ

استفاق يونس فجراً على صوت نباح كلاب ضالة عند أطراف الغابة.

كان الصوت يأتيه من بعيد، متقطعًا، كأن الطبيعة تنبّه الروح قبل الجسد.

تلا النباح صوتُ الريح تتسلّل عبر شقوق الخشب، تعزف لحنًا باردًا فوق الجدران الطينية.

جلس يونس ببطء، واضعًا راحتيه على ركبتيه، كأن قيامه من نومه فعلٌ طقسي.

كان الظلام لا يزال يملك الزوايا، والضوء لم يبدأ زحفه بعد.

تمطّى بكسل، ثم حدّق طويلًا في سقف الغرفة المنخفض.

لقد بدأ يحفظ تفاصيله، التشققات، آثار الدخان، الحواف المهترئة، كما لو أن المكان بدأ يتسلّل إلى ذاكرته مثل وجهٍ قديمٍ كان يظنه منسيًّا.

لم يشعر بالجوع. لم يشعر بالحاجة لأي شيء.

فقط فراغٌ واسع في داخله، كأن شيئًا كان يحتلّه طوال حياته... وها هو الآن قد انسحب دون ضجيج.

لا هواتف، لا مواعيد، لا رسائل.

خرج إلى ساحة التكية، فرأى الشيخ إلياس يقف بجوار المشتل، يسكب الماء من إبريق خزفي فوق شتلات صغيرة.

صوته الخافت يتداخل مع خرير الماء، كأنه يقرأ دعاءَ بلغة لا تحتاج إلى كلمات.

تردّد يونس، كأنه يقترب من شيء مُقدّس. أراد أن يتقدّم، أن يقول شيئًا، لكن قدميه تجمّدتا. لم يكن خائفًا، بل متردّدًا من اقتحام هدوء لم يكن له.

استدار ومشى، ابتعد عن التكية، واتّجه نحو البحيرة.

في ذلك الصباح، كانت الشمس بالكاد تسجل حضورها، قرصًا باهتًا خلف ضباب رقيق. الماء بلا حركة، بلا تموّج، فقط مرآة رمادية تعكس سكون العالم.

جلس على صخرة رطبة، وأخرج من جيبه سبحة صغيرة كان مالك قد وضعها في يده منذ يومين دون أن يقول كلمة.

بدأت أصابعه تحرّك الحبات الخشبية ببطء، دون نية، فقط لتسكين ذلك القلق الذي لا اسم له.

سمع خطى خفيفة تقترب. التفت، فوجد زاهد يقف خلفه، يحمل دلواً فيه أعشاب برية.

قال زاهد ببساطة: «ماذا تفعل هنا وحدك؟»

رد يونس دون أن يلتفت: «أهرب... كالعادة.»

اقترب زاهد وجلس على مسافة قصيرة: «لكن الهرب هذه المرة لا ينفع... لأن ما تهرب منه يسكن داخلك.»

ظل يونس صامتًا. هو يعرف، لكنه لا يريد أن يعترف.

كل كلمة تصله من هؤلاء الدراويش باتت تُشبه المرايا الصغيرة... تعكس شيئًا من داخله كان يخشى النظر إليه.

قال زاهد وهو ينظر إلى البحيرة:

« كنت أتعرض للتنمر كثيراً. في المدرسة، في الحي، حتى من إخوتي، كنت أضحك معهم... ثم أعود للبيت وأكسر شيئًا كل مرة.

حتى قال لي الشيخ يومًا: 'إن أردت أن تكسر شيئًا، فابدأ بما يؤلمك أكثر من الخارج... اكسر ما في الداخل.'»

تنهّد يونس، شعر بأن قلبه يرتجف، لا من البرد، بل من قسوة التطابق.

ثم فجأة، اندفع قائلاً:

«وماذا تعرف أنت عني؟! لمَ تتحدث وكأنك تعرف تفاصيل حياتي؟ أنا لم أختر أن أكون هنا. وقعت في هذا المكان كأنني سقطت من جسر مكسور!»

نهض واقفًا، وراح يصرخ في الفراغ:

« تبا لهذا الطريق، لهذا الدير، لهذا الصمت... لهذه المواجهة السخيفة مع الذات!»

لم يرد زاهد. فقط ظلّ ينظر إلى الماء، ثم تمتم:

« وأنت تظن أنها مواجهة؟ إنها ولادة، يا يونس. لكنها مؤلمة.»

عاد يونس إلى التكية بخطوات غاضبة، لكنه لم يجد من يحدّق فيه أو يوبّخه.

الدراويش استمروا في أعمالهم كما لو أن شيئًا لم يحدث، شاهين كان يرتّب الأعشاب بدقّة، وعزام يُعد العجينة في المطبخ.

مرّ بجانب شاهين، فمدّ الأخير يده فجأة ووضعها على كتف يونس، وقال بصوت خافت:

«أقسى معركة... هي التي تحدث بينك وبينك.»

في تلك الليلة، أوى يونس إلى فراشه مبكرًا، ظنًّا منه أنه سيهرب من نفسه، لكن النوم لم يكن خلاصًا.

رأى في حلمه نفسه داخل قاعة فخمة، محاطًا برجال في بذلات فاخرة، يتحدثون عن البورصة والاستثمارات.

كان هو واقفًا في المنتصف، عارٍ، بلا شيء. حاول أن يغطي جسده، لكن الضحكات تصاعدت.

رأى وجه لبنى بين الحاضرين، تنظر إليه بعتب.

ثم تحوّلت القاعة إلى قاعة محكمة، وجلس القاضي على المنصة... بوجه يشبه الشيخ إلياس.

قال بصوت رخيم:

«أنكر ما شئت... لكن لا تنكر أنك عشت كأنك وحدك على هذه الأرض.»

استفاق يونس مفزوعًا، العرق بلّل صدره رغم برودة الجو.

جلس في الظلام، يلهث، كأنّه خرج من غرقٍ بطيء.

مدّ يده إلى الطاولة بجانب الحصيرة، التقط السبحة، وبدأ يحرّك الحبات بهدوء.

لم يكن هذا المكان كما ظنّه أول مرة. لم يكن معتقلًا، بل كان مرآة.

وفي كل مرآة... شرخٌ يُعيد ترتيب الوجوه.

بدأ يشعر أن جدرانه الداخلية تتصدّع.

وبين كل شق... ضوء صغير... يبحث عن طريق.

الفَصْلُ الخَامِسُ

بَدَايَةُ التَّحَوُّلِ

كان يونس يستيقظ كل صباح لا على رنين هاتف، بل على صوت الماء يُسحب من البئر، على خشخشة الملاعق في أواني الفخار، على حفيف أقدام الدراويش وهم يبدؤون نهارهم بلا كلمات.

إن لم يُفسد حنقه على زاهد عليه أيامه الساكنة في الدير، لبقيت حياته في التكية تنساب بتبلدٍ شبه وادع.

لكنه صار شعلة ضئيلة تستعر في صدره، تطفئ لحظات سكينته وتوقد نيران التساؤل في عتمة قلبه.

كان فجراً غائماً، حين خرج يونس من غرفته مسرعًا، شفتاه مضمومتان، عينيه موشحتان بسهَر ليل مضطرب.

كانت خطواته على الحصى تشبه دقات غيظٍ مؤجل، حتى بلغ الممر حيث وقف زاهد يكنس بترفق أوراقًا جافة جمعها الليل.

وقف يونس أمامه، جسده منتصب بشدّة، كأن الغضب وحده هو ما يمنحه التوازن:

«ما الذي يجعلك تظن أنك تعرفني؟ من أنت لتتسلل إلى صدري بكلمةٍ ثم ترحل وكأنك لم تفعل؟»

توقف زاهد، أمال المكنسة قليلاً وكأنما ليس من الأدب تركها تسقط، وقال بصوت هادئ:

«أنا لا أعرفك يا يونس، أنت مَن بدأ يظهر نفسه... لا أكثر.»

صرّ يونس على أسنانه، ثم دفع المكنسة برجله بعنف، تناثرت الأوراق اليابسة كأنها أفكار مبعثرة في رأسه، قبل أن تهمد على الأرض بخنوع.

هتف بحدةٍ متأججة:

«كفّ عن هذا! لست نبيًا، ولا قديسًا، وأنا لست تائهًا بانتظار خلاصكم. أنا هنا لأن السيارة تعطلت، وسأرحل حين تصلح، أفهمت؟!»

رفع زاهد عينيه إليه، وفي نظرته سكينة من نوعٍ لا يقدر الغضب على كسره.

قال بهدوء:

«الغضب... هو ألمٌ لا يعرف طريقه إلى اللسان، وكلنا نتألم، لكن من يعترف... يشفى.»

تشنج وجه يونس، ارتجف فكه للحظة.

ثم أدار وجهه ومضى بخطى ثقيلة، يده ترتجف قليلاً، كأنها لم تجد ما تمسك به بعد أن أسقطت المكنسة.

في وقت الظهيرة، وبينما كان يحمل دلو ماء ثقيلًا نحو المطبخ، اقترب منه جلال، شاب القرية ذو الملامح السمراء واليدين الخشنتين.

قال وهو يضع كيسًا من القمح أرضًا:

«اليوم سنوزّع مؤنًا على بعض بيوت القرية، إن أردت، يمكنك أن ترافقني.»

رفع يونس رأسه ببطء، نظر إليه، ثم إلى الدلو المبلّل بين يديه، وأجاب:

«لنجرّب.»

ركبا عربة خشبية تئنّ تحت وطأة الأحمال، يجرّها بغلٌ شاحب العينين، يرفرف ذيله كلما لسعته ذبابة. الطريق ترابيّ غاصٍ بالماء، تتمايل فيه العربة يمينًا ويسارًا، كأنها تتعلّم التوازن من جديد.

البيوت التي وصلوها كانت بيوتًا من طين، تفتح أبوابها دون قفل، وتغلقها الريح لا البشر.

في أول بيت، خرجت امرأة عجوز، جسمها محنيَ، وصوتها مبحوح من السنين.

ناولها يونس صفيحة زيت، وكيسَا من الطحين.

وضعت يدها على صدرها، ثم مسحت على رأسه بخفةِ كأنها تباركه، وقالت:

«بارك الله لك، يا بني. جعلك الله ممن يُضيئون الدروب.»

ارتجف كتف يونس، لم يستطع أن يبتسم.

اكتفى بأن أطرق برأسه، وهمس بشكرٍ لم يسمعه أحد.

مرّا بعدها على بيوت عديدة، في كل بيت، كانت كلمة أو نظرة أو يد صغيرة تمدّ إليه زهرة برّية، تُحدث فيه صدعًا آخر.

رأى الفقر لا بوصفه نقيضًا للغنى، بل كأرضٍ ينبت فيها الصبر والتوق.

عند طرف الوادي، جلس مع جلال على صخرة ناتئة، ساقاهما تتدليان، والماء ينساب تحت قدميهما.

قال جلال، وهو يغسل وجهه من غبار الطريق:

«الناس هنا لا يبحثون عن من يطعمهم فقط... بل عن من يقول لهم: أنتم لستم منسيين.»

قال يونس، صوته خرج كأنما من عمق بئر:

«أنا لم أرَ أحدًا من قبل كما رأيت اليوم... حتى نفسي.»

قال جلال:

«الحياة تُرى حين تلامس التراب، لا من نوافذ السيارات المكيفة.»

ظل يونس صامتًا.

شعر وكأن الماء يغسل شيئًا من داخله لم يعرِف أنه كان عالقًا فيه.

حين عاد إلى التكية، كانت الشمس قد بدأت تميل.

مرّ من تحت شجرة التوت، ورأى عزّام أفندي يجلس على قطعة حجر، ينحت في خشبة صغيرة بتركيزٍ كمن ينحت الذاكرة.

اقترب يونس وجلس بجانبه، ناظرًا إلى يديه الملطختين بنشارة الخشب.

قال عزّام، دون أن يقطع عمله:

«الخسارة الحقيقية ليست فقدان المال، بل أن تفقد نفسك دون أن تدري.»

قال يونس بصوت خفيض:

«ربما لم أعرف نفسي أصلاً.»

ناول عزّام الخشبة ليونس.

كانت على شكل قلب محفور فيه شق صغير، لكنه لا ينزف.

«الرؤية تبدأ من هنا... من الشق.»

قبض يونس على القطعة، كأنها شيء أراد الاحتفاظ به قبل أن يهرب.

في الليل، جلس قرب الموقد، اللهب يرقص أمام عينيه مثل خيالاتِ تُريد أن تهمس له.

تمدد على حصيرته، وعيناه تتابعان تذبذب النور فوق الجدار.

لم يفكر.

لم يتألم.

فقط... انزلق في نومٍ مفاجئ.

في الحلم، كان الشارع طويلًا لا يُقاس، الناس فيه بلا وجوه، يمرّون كأنهم ظلال.

صرخ يونس ولم يردّ أحد، ثم بخطوات خافتة تقدم منه طفل، ناوله مرآة مغلفة بسواد.

و بحذر فك يونس القماش المغلف، رفعها، فرأى وجهه يذوب، يشيب، يتكسر كأنه طين جاف

استيقظ، قلبه يخبط صدره كطبول، ويده ترتعش على صدره.

في الفجر اتالي، دخل مجلس الشيخ إلياس، وجلس صامتًا.

قال الشيخ، وهو يقرأ في مصحف صغير:

«الأحلام، إن لم تفهمها، كانت فتنة. وإن فهمتها، كانت رسالة.»

رفع يونس رأسه، تنفس ببطء، وقال:

«ربما بدأت أفهم... لكن لا أدري إن كان الأوان قد فات.»

وضع الشيخ يده على كتفه، وقال:

«الحق لا يعرف التأخير، يعرف القلوب الصادقة، وأنت صدقت.»

منذ تلك اللحظة، صار يونس يرى ما لم يكن يراه.

لم تعد حركة شاهين شفاء في الحديقة مجرد طقسٍ صامت، بل صلاة تُؤدّى بالأيدي.

جلس معه تحت شجرة الزيتون، وأوراق الزيزفون بينهما، قال:

«لماذا يسمّونك شفاء؟»

ابتسم شاهين، ونفخ عن ورقةٍ نملة صغيرة:

«لأنني كنت مريضًا، لا في الجسد فقط... بل في النية. وشفيت حين صدقت في الألم.»

قال يونس، وهو يمسح جبينه بكمّ قميصه:

«وكيف يعرف الإنسان أن قلبه فاسد؟»

قال شاهين:

«حين يتوقف عن التألم، حين يصير الباطل عاديًا، والغضب خُلقًا، والوحدة راحة.»

أطرق يونس، ثم تمتم:

«أظن... أنني كنت ميتًا دون أن أعلم.»

قال شاهين:

«ومن يعترف بالموت، بدأ حياته من أول وجع.»

حين قام يونس، كانت خطواته بطيئة... لكنها لأول مرة، تمشي نحو جهةٍ لا يرفضها قلبه

الفَصْلُ السَّادِسُ
لَحْظَةُ الإِدرَاكِ

كانت الليلة صافية حدّ الإرباك، قمرٌ بدرا يتدلّى من علياء السماء كعينٍ بيضاء لا تنام، يسكب ضوءه الفضيّ فوق ساحة التكية كأنها ساحة من زمنٍ آخر، مغطاة بهالة بين الضوء والسكينة.

كل شيء فيها يهمس، الأشجار، الحجر، حتى الريح تمشي بين الأعمدة بهدوءٍ صوفيّ، كأنها تؤدّي نشيدًا لا يُسمع.

جلس يونس وحده في زاوية الحديقة، قرب فانوس زيت يشتعل بخفوت.

كانت شعلة الفانوس ترقص على وجهه المرتجف، تُظهر الظلال أكثر من الضوء.

أمامه كوب ماء، لم يشرب منه. كان يتأمل اللهب كما يتأمل سيرة حياة بأكملها.

لم يكن يفكر، بل يتفرّج على أفكاره وهي تمرّ واحدة تلو الأخرى كأنها غرباء يمرّون من أمامه دون حاجة للحديث.

لم يكن يخشى الظلام كما في الماضي.

بل صار الظلام مرآة، فيها يرى ما لم يجرؤ على النظر إليه من قبل.

ليس لأنه شجاع فجأة، بل لأن الصمت في هذا المكان يُرغمك أن تواجه.،

ولو أنك جئته هاربًا.

صوت خطواتِ ناعمة على التراب الرطب، التفت، فوجد شاهين شفاء يقترب، يحمل في يده إناء صغيراً من الحليب الساخن، جلس بجانبه دون كلمة، قدّم له الإناء، ثم تنهد وألقى بظهره على جذع شجرة قريبة.

بعد دقائق صامتة، قال شاهين بهدوء أشبه بترتيل:

«أتعرف ما الفرق بين الساكن والساكت؟ الساكت يخشى صوته، أما الساكن... فيستمع له.»

رفع يونس عينيه إليه، وفي صوته نغمة جديدة، لم تكن السخرية، ولا الإنكار، بل خيط من اعترافٍ غير مكتمل:

«أنا كنت أهرب بصمتي... لكنّي لم أسكن يومًا.»

ربّت شاهين على كتفه، ثم نهض كأنّه أدى ما جاء من أجله، وتركه دون أن يلتفت. تابع يونس شعلة الفانوس. لم تكن تنطفئ، لكنها لم تبقَ كما كانت.

في صباح اليوم التالي، أثناء توزيع المهام، اقترب منه زاهد، لم يكن يحمل أمرًا بل دعوة:

«الليلة... هناك طقس داخلي. طقس لا يُقام إلا في الليالي التي تسمع فيها الأرواح بعضها.»

لم يسأل يونس عن معناه. فقط أومأ. لم يشعر أن عليه أن يفهم قبل أن يحضر، بل أن يحضر ليفهم.

عند المغيب، وُضعت الشموع في الممرات، وعُلقت مصابيح الزيت، وبدأ المكان يتحوّل تدريجيًا إلى حضرة نورانية، لا ضجيج فيها ولا انتظار.

دخل يونس القاعة الكبرى بصمت. بابها الخشبي صريره يشبه شهقة طويلة.

لم يطلب أحد منه أن يخلع حذاءه، لكنه فعل.

ولم يُطلب منه أن يجلس على الأرض، لكنه جلس.

لم يُطلب منه أن يصمت، لكنه لم ينطق.

القاعة مفروشة بسجاد قديم، ألوانه باهتة كذكريات الطفولة، الرائحة مزيج من البخور والعرق والزهر الجاف.

جلس الدراويش في دائرة، رؤوسهم مائلة، أعينهم نصف مغمضة.

بدأ الذكر بصوتٍ خافت، بالكاد مسموع. كان أشبه بهدهدة لنفسٍ خائفة.

لكن الصوت بدأ يصعد، لا جهارة، بل عمقًا، كأن الأرواح تُفرغ ما علق بها من أوزار.

أغمض يونس عينيه، ليس برغبة، بل كأن الضوء لم يعد ضرورة.

رأى

رأى نفسه طفلًا، يختبئ من صراخ والده في غرفةٍ مظلمة.

رأى أمه تبكي دون صوت، رأى نفسه يضحك ساخرًا على مؤيد، ثم رأى لبنى... تقف على الرصيف المقابل، ووجهها يبهت كلما ابتعد.

لكن وجهها هذه المرة لم يكن كما يتذكّره. كان مبللًا... لا من المطر، بل من ماء النهر.

صوت خافت داخل رأسه همس: «لقد انتحرت ».

رأى صورًا كثيرة، سريعة، مؤلمة، لكنها لم تكن مجرّد ذكريات، بل شهادات.

شعَر كأنه يُعرض عليه سجلّ حياته، لا ليدافع، بل ليفهم.

ثم رأى نفسه، عاريًا. بلا ساعة، بلا قميص حريري، بلا عطر، فقط جسد يرتعش، وروح تنكمش.

لم يعد يقوى على النظر، لكن لم يستطع أن يبعد عينيه.

انفجرت الدموع، لا بصوت، بل بحرارة تسيل على الخدين، تطرق الأرض ولا تعود.

فتح عينيه ببطء، لكن الطقس لم ينته.

استمرت الهمهمات من حوله، كأن العالم ما زال يقول ما لم يُقل.

حين هدأت الأصوات، لم يكن الزمن كما دخل.

شيءٌ انكسر، وشيءٌ بُني.

و في الليل، جلس يونس في غرفته على حافة فراشه الارضي، وأخرج دفترًا قديمًا وجده في أحد الأدراج.

فتَحه على صفحةٍ بيضاء، ثم كتب:

«لم أكن أهرب من الناس، كنت أهرب مني، كنت أخشى أن أنظر إلى المرآة، فأجد رجلاً يشبهني دون أن أكونه.

كنت أظن أن السيطرة قوة، واليوم أدركت أنها قناع.

ما كنت أملك لم يملكني، بل قيّدني... وأفلتُ منه أخيرًا.»

ثم نظر إلى المرآة المعلقة على الحائط.

كانت غير صافية، غبار يكسو أطرافها، وزجاجها مشوش. لكنه ابتسم وقال بلهجته العربية و بصوتِ خافت:

« لا تخاف، أنا بلّشت أعرفك.»

مع شروق شاحب، استيقظ يونس، نهض بهدوء على غير عادته، وتوجه إلى المغسلة الحجرية خارج الغرفة.

توضأ بماءٍ باردٍ غسل وجهه كما لم يغسله من قبل، كانت يداه ترتعشان، لكنه أحسّ بشيء يشبه الطمأنينة.

فرش سجادته الصغيرة، ووقف يُصلّي، صوته خافت، وركعته الأولى ارتجفت فيها ركبتاه، لكنه حين سجد، شعر أن شيئًا ما يُسحب منه بهدوء... شيء ثقيل، شيء ظلّ عالقًا فيه سنين.

حين سلّم، لم ينهض فورًا، بقي جالسًا، يده على صدره، ونظره إلى الأرض.

ثم مدّ يده إلى المسبحة التي أعطاه إياها مالك قبل أيام، وبدأ يمرر حباتها بين أصابعه ببطء.

لم يكن يردد الأذكار بصوت، بل كأن كل تسبيحة تنزل إلى قلبه مباشرة، تغسل ما تراكم فيه من صدأ.

تسارعت أنفاسه للحظات، لكنه لم يتوقف، فقط واصل، كأن المسبحة تقوده، لا هو.

أحكم قبضته عليها بارتخاء ثم قال همسَا:

«اللهم اهدني... فقد عدت إليك فارغًا، وأنت لا تردّ الفارغين.»

نهض أخيراَ.

لم ينتظر أحد أن يناديه. ارتدى ثوبه باللون الترابي، وخرج قبل أن يطلبه أحد.

دخل المطبخ، ساعد عزام في تقشير البطاطا، ثم ذهب إلى الحديقة يسقي الشتلات الصغيرة، ثم إلى الساحة يكنسها، يتنفس في كل خطوة، لا كشخص يؤدي عملًا... بل كشخص يتطهّر.

حين مرّ زاهد بجانبه، اكتفى بأن حيّاه بنظرة عميقة، ويونس ردّها دون كلمات.

لم يكن التغيير إعلانًا، بل كان ولادة. هادئة، بطيئة، دون بكاء.

في المساء، جلس مع شاهين شفاء قرب الحديقة، والأعشاب تتمايل برقةِ في الضوء الذهبي.

قال يونس:

«اليوم شعرت وكأنني نمت ألف عام، ثم صحوت فجأة.»

رد شاهين:

«سُبحان الذي يُحيي العظام وهي رميم.»

قال يونس، وعيناه لا تفارقان حركة أوراق النعناع:

«كنت أظنني حيًا، والآن أدرك أنني كنت أتحرك بجسدٍ ميت.»

قال شاهين:

«حين يتذكّر المرء أنه مسؤول عن خياراته، ويواجهها بشجاعة... يبدأ الشفاء، لا يُولد النور إلا حين نكفّ عن الإنكار.»

صمتا، ثم قال يونس:

«شاهين... هل من الممكن أن نُشفى تمامًا؟»

ابتسم شاهين:

«الشفاء ليس لحظةً تنتهي فيها العلة، بل طريق تعرف فيه حقيقتها. ما دام الألم لا يُنكر، فأنت بخير.»

قال يونس:

«وهل كنت ظالمًا لنفسي؟»

أجابه شاهين، وهو ينهض:

«بل كنت غريبًا عنها.»

وبقي يونس جالسًا، يرقب زرقة السماء تتوهّج بنجوم بعيدة. شعر أن كل واحدة منها تقول له:

« أنت هنا، الآن، وهذا يكفي.»

في قلبه، بدأ شيء جديد، لا اسم له بعد، لكنه يشبه السكينة.

ولأول مرة، لم يسأل: «إلى أين سأذهب؟»

بل همس: من سأكون... إذا بقيت؟

الفصل السابع والاخير

طريق العودة

كان الصباح في التكية له رائحة لا تشبه شيئًا.

ليس فقط ندى الأشجار أو بخور العتمة المتبقية في الأركان، بل هو شيء أعمق، كأن الهواء نفسه وُلد من جديد.

كانت الأصوات خفيفة، والألوان أنقى، والقلوب في مكانها الصحيح.

في هذا الصباح تحديدًا، كان يونس يملأ إبريقًا من البئر الصغيرة خلف المطبخ.

يراقب الماء وهو ينساب ببطء من بين أصابعه، كأن كل قطرة تحمل شيئًا من الأيام الماضية.

منذ لياليه الأولى في التكية، لم يشعر بهذا الاتزان. لكن داخله، كان يعلم أن شيئًا يقترب... ليس النهاية، بل بداية جديدة.

ثم سمع صوتًا من بعيد لم يطرق أذنه منذ زمن، كان صوت محرك.

توقّف عن صب الماء، حدّق في الأفق، خطواته تسحب الأرض بحذر.

تقدّم نحو البوابة الخشبية، وهناك، عند آخر الممر، كان جلال يلوّح له، وخلفه رجلٌ ممتلئ يحمل صندوق أدوات.

« يونس، وصل ميكانيكي القرية، قلت له يفحص السيارة... و وجدنا هاتفك بالمناسبة، كان ملقى بجانبها، أعتقد يمكن إصلاحه.»

ظل يونس واقفًا للحظة، لا يجيب، ولا يتحرك.

شيءّ داخله تململ، ارتبك، كأن الطمأنينة التي استقرت أخيراَ في قلبه، تتهيأ للاختبار.

اقترب منه الشيخ إلياس، صوته كعادته رخيم، مريح، غير متطفل ثم قال:

«الباب لم يُغلق أبدًا، لكن البعض يدخل ليهرب، والبعض يخرج ليعود، المهم... بأي نية تغادر؟»

التفت إليه يونس ببطء، وعيناه فيهما نظرة امتنان وحزن وشيء آخر، كأنه وداعٌ لا يريد أن يكون وداعًا.

قال بصوتٍ أجش:

«أعدك شيخي أن أعود... هذه المرة، لا لأني ضائع... بل لأني مُشتاق.»

أومأ الشيخ برأسه، وقال:

«من عرف السفينة، لا ينسى الطوفان.»

عاد يونس إلى حجرته، و بدأ في جمع أغراضه لم يكن فيها الكثير أختار من بينها ثوبه الترابي، دفتر صغير، مسبحة أعطاها له مالك و مصحفه الذي اهداه إليه شاهين شفاء.

و عند الباب، كان مالك بانتظاره، يمدّ له مسبحة أخرى، خرزها داكن، يبدو عليها الزمن.

« أخي يونس، هذه كانت لي... لكنها تخصّك الآن، قد تذكّرك أنك نجوت... لأنك سمحت للوجع أن يُخرجك من نفسك القديمة.»

ابتسم يونس، ضم المسبحة بكفّيه كأنها قبس من يقينٌ ناعم في راحة اليد.

في الساحة، لم يكن وداعًا رسميًا، فقط صمت الدراويش، وابتساماتهم المتفهمة.

زاهر وحده تقدّم وعانقه:

«أرجّع لنا يونس الذي عرفناه من الداخل.»

رد يونس:

«لا أعدك، لكن إن رجعت... سأرجع كمن وجد طريقه، لا كمن تاه فيه.»

رافقه جلال مشيًا حيث كانت تقف السيارة بعيدا بمسافة كبيرة عن التكية

ركب السيارة مع جلال، الطريق الترابي بدا مألوفًا أكثر من ذي قبل.

الشمس أكثر دفئًا، والمحيط أكثر وضوحًا.

و في مرآة السيارة، رأى التكية تنكمش شيئًا فشيئًا، حتى صارت نقطة عند حافة البحيرة.

«هاتِ الهاتف.»

قالها جلال، أخذ الهاتف المهشم، وأخبره أنه يعرف شابًا في القرية المجاورة قد يكون قادر على إصلاحه.

أعطاه يونس الهاتف لكن لم يكن متحمسًا كان شارد الذهن و كأن الهاتف بات شيئًا من عالمٍ لم يعد يعنيه، لكن فضوله القديم لم يمت كليًا.

بعد الظهيرة ، كانت السيارة تعمل مجددًا، والهاتف في يده، يشع ضوئه من شاشة أُعيد إحياؤها.

جلس خلف المقود، وتنفّس ببطء، كأن الذاكرة نفسها تستيقظ فيه ولكن بتفاصيل متغيرة.

فتح الهاتف يتصفحه بفتور ثم أختار آخر ما وجده بسجل الهاتف قبل شهر، فتح مكالمة فيديو جماعية.

و من جديد ظهرت الوجوه الثلاثة: أركان، براق، مؤيد. كانوا على الميناء، يضحكون، يشربون شيئًا غريب اللون.

سأل براق بحماس:

«أين كنت يا رجل»

أجاب يونس:

«كان الأمر أشبه بحلم، كنت في مكان... لم أظن أنني سأبقى فيه أكثر من ليلة، لكنّي بقيت شهرًا.

أنها تكية دير الدراويش... صمت طويل... ومرآة داخلية.»

ضحك أركان ساخرًا «ماذا يا ابن الشام هل تخبرنا الآن أنك انضممت إلى طائفة صوفية؟!»

قال يونس بهدوء: «لا، فقط وجدت ذاتي هناك.»

«يونس... هناك أمر يجب أن تعرفه.»

كان مؤيد صوته لا يحمل شيئًا من الدفء حين قالها.

لكن شيئًا ما في نبرة مؤيد قد بدا مُتغيّر.

صار صوته كظلّ طويل، يجرّ خلفه شيئًا أثقل من الكلمات.

خفض عينيه، كأنّه يخجل مما سيقوله.

«بعد اختفائك... ألقي القبض على والدك، قضايا فساد... تبييض أموال... استغلال نفوذ. سُجن...»

انتفض يونس، حدقتاه اتسعتا كأن صاعقة مرّت أمامه، وقال بصوتٍ متوتر مرتفع:

«وأمي؟ يُمنى؟ ماذا حدث لهما؟ قل لي، بالله عليك، قل إنهما بخير!»

ارتجفت ملامح مؤيد، كأن الكلام خنقه في حلقه، ثم خفض رأسه قليلًا، وشرد في زاوية الشاشة.

يونس صرخ من خلف الهاتف، ملهوفًا، مرتجفًا:

«تكلم! مؤيد، أرجوك، لا تصمت الآن... قل لي!»

رفع مؤيد نظره، وعيناه تغصّان بالأسى. تنهد بصوتٍ واهن، وقال:

«والدتك... لم تحتمل الخبر، ماتت في أول أيام التحقيق، قيل إن الصدمة أودت بها.»

ثم ابتلع ريقه بصعوبة، وأردف:

«القصر... الأملاك... كل شيء صودر من الحكومة الجديدة.»

وضع يونس يده على فمه، شهق دون صوت، جسده ينتفض كمن صُفع على موضعٍ كان يظنه ميتًا.

رفع الهاتف ببطء، ثم قبض عليه بعنف.

«لا... لا تقل لي إن يُمنى...»

كان صوته يرتجف، لكنه ما زال يقاتل كي لا ينهار.

تابع مؤيد، برفق هذه المرة:

«يُمنى بخير... هربت إلى روسيا. طلبت اللجوء هناك. وصلت سالمة.»

في تلك اللحظة، تجمّد العالم.

اتّسعت عينا يونس، ثم انكمشتا فجأة، وكأنهما تغلقان على مشهد لا يُحتمل.

تقلّصت عضلات وجهه، تحجّر فمه، ولم يخرج أي صوت.

شحب وجهه، وبدا كمن انفصل عن جسده.

أدار وجهه للحظة، ثم أسند جبهته إلى راحة يده، جسده كله ينوء بحملِ لا يُرى.

ثم أغلق عينيه، وتدفّقت الرؤى.

رأى أمّه، في الحلم القديم، تقف داخل القبر المفتوح، بثوبها الرمادي، تمدّ يديها إليه وتهمس:

«خذني معك بني... لا تتركني هنا.»

ثم والده، يغرق في بركة دم، عيناه تفتّشان عن مخرج، وصوته مختنق:

«أنقذني يا بني...»

وتلك التكية في الحلم... جدارها المبتل، وبابها الخشبي المفتوح.

هناك فقط... كان الأمان.

فتح عينيه، همس من بين شقوق روحه، ببطء كمن نطق بحقيقة كونية:

«ذلك كان الطوفان... والتكية كانت السفينة.»

ثم تابع، وكأن الكلمات تنهال من داخله لا من فمه، هامسًا بصوت متعب:

«صار ما صار... ومات من مات... وما عاد في شيء يُستدرك.»

ساد الصمت لثوانٍ أثقل من ساعات

قطع براق الجمود بصوت فيه مرارة وحزم:

«يونس... قد تكون فقدت أمك، وانهار كل ما بنيته... لكنك لم تفقدنا، صدقني، نحن معك، حتى لو اختفت القصور، نحن من سيبقى.»

اقترب أركان من الكاميرا، كان صوته أكثر عمقًا هذه المرة، خاليًا من الهزل المعتاد:

«سأقيم عزاء يليق بوالدتك، وباسم عائلتك، لا تقلق، العظمة لا تُقاس بما يبقى، بل بمن وقف حين زالت.»

ثم تحدث مؤيد، صوته مكسوّ بجديّة لم يعهدها يونس من قبل و بلهجته العربية قال:

«قد لا أكون من أبناء الثراء حتى أفهم ألمك كله، لكني أعرف جيدًا ما معنى أن تخسر كل شيء...أن تفقد عائلتك، أنا معك، يا يونس. لأجل كل شيء منحتني اياه يومًا... ولأجل من بقي فيك حيَا».

رفع يونس نظره إلى الشاشة، لم يكن في عينيه دمع، بل وعي.

وعي ثقيل، ناضج، ساكن، كما لو أن طفلاً بداخله توقف عن البكاء.

أغمض عينيه للحظة، ثم قال بصوت خافت:

«شكرًا لكم... صدقًا، لم أكن أظن أنني سأسمع كلمات تشبهني بعد كل هذا...»

ثم أطفأ الهاتف ببطء، و وضعه على الكرسي المجاور، كأنه يعيد للعالم صمته.

قاد السيارة نحو أنطاليا، لم يعد يركض وراء شيء، بل يرافق الطريق بهدوء.

توقّف عند مطعم صغير، طلب شايًا وطبق من مشويات شعبية.

لم يكن بحاجة إلى نبيذ فرنسي، فقط نار بسيطة، وطعمٌ يعرفه قلبه.

رن الهاتف مجددًا.

فتح المكالمة و ظهر صوت براق يقول:

«يونس!، يا شباب وجدت شيئًا... هذه التكية التي تخبرنا عنها، ظهرت لدي أنها مسجلة في سجلات أثرية للدولة، شُيِّدَتْ في عهد السلطان القتيل، عثمان الثاني، بأمر منه و أشرافه، كمدرسة و تكية صوفية لتعليم الدين، لكن يرجح أنها مهجورة منذ عقود، ومعزولة جغرافيًا.

أغلب من حاولوا زيارتها من هواة الأثار و مريدين التصوف فشلوا في الوصول إليها، ويقال إنها لا تُرى إلا نادرًا.

لكن هناك قرويين كثر و بضع أشخاص سجلوا أوصافً تثبت حقيقة رؤيتها»

ابتسم يونس بيقين:

«ربما لهذا لم تصلوا يا رفاق، ربما أنت لا تدخلها... بل هي التي تسمح لك بالدخول.»

هتف أركان باستهزاء:

«هذا درب من الجنون يا رجل!، تكية دراويش سحرية تلك أم عشيرة من الجن؟!»

ضحك يونس ثم قال بهدوء:

«السماع شيء... والرؤية شيء.»

تبادلوا الاحاديث عن وصول يونس لأنطاليا و عن المكان الذي سوف يتلقيان به

« حسنا أيها الدرويش الرفيق أخبرنا، ما خلاصة ما خرجت به من كل هذا؟»

رفع الهاتف نحو الغروب، وقال:

«أن البلاء لا يأتي من الخارج... بل من حُبّ الذات، ومن أدرك ذلك، أدرك الرحمة.»

ثم أستأذن منهم مغلقً ليكمل طعامه

بعد ما أكل وضع يده في جيبه الداخلي، واخرج المسبحة والدفتر

فتح آخر صفحة، وكتب:

في هذه البقعة التي تئنّ من صمت الأزمنة، حيث تنحت الأيام شقوقها على جدران نَسِيها الزمن ولم تنسَ، وحيث تتعانق البدايات بالنهايات كما تتعانق ظلال الغروب ببقايا النور، وجدت نفسي...

لا راكبًا ولا سائرًا، بل قطعة شطرنج في لعبة لم أفهم قواعدها، لكنني كنت دومًا على رقعتها.

لم تكن طرقاتي مفروشة بالياسمين كما حلمت، بل كانت ممراتِ مرصوفة بشظايا مرايا.

كل مرآةِ كسرتني مرّة، وأرَتني وجهًا جديدًا لي... وجهًا لم أجرؤ يومًا على تسميته: «أنا».

تعلّمت أن الأيام لا تنتقم، بل تمتحن.

أن الألم ليس خصمًا، بل مُرشدٌ متنكّر، وأن السقوط، رغم فظاعته، هو البوابة الحقيقية لأول ضوء.

عبرت زمنًا يتمطّى كالمطاط، تتطاول ساعاته وتضيق أنفاسه، حتى سمعت في لحظة من لحظات الانكسار همس الجدران القديمة:

«من ينحت الجراح... سواك؟»

كنت أقاوم. أشهر عنادي كسيفٍ صدئ في وجه كل وجع، حتى إذا انكسرت أضلاعي تحت وطأة الوحدة، رأيت نورًا يتسلّل من شقّ صغير في قبة قديمة.

كان النور صامتًا... لكنه قال لي كل شيء.

حينها فقط فهمت:

«القوة ليست أن تصرخ، بل أن تُصغي لما وراء الصمت. أن تسمع صوت الضوء... وهو يناديك.»

نهضتُ، ولأول مرة، لم أبحث عن وجهتي.

كنت أحمل بين أضلعي أساطير المكان، وتاريخًا لا يُروى بالكلمات، بل يُنقش بالنظر والسكوت.

كل خطوةٍ بعدها، صارت إما دمعةٌ تودّع ما مضى... أو بذرةٌ تهيّئ لغدٍ قادم.

الآن... بعد أن صرت جزءاَ من تُراب هذا الملاذ، بعد أن ذابت صرخاتي في تراتيل الدراويش، وأصبحت أنغامي لا تختلف كثيراَ عن أنينهم، أدركت:

الحقيقة لا تتجلّى لمن يُصارع القدر، بل لمن يدور معه... حتى يُذيب بينهما الحواجز.

هنا، في تكية دير الدراويش، حيث لا تُغلق الأبواب، ولا يمشي الزمن بخط مستقيم، بل يرقص في دائرة لا تنتهي... كانت البداية.

أما الرحلة؟

فلم تنتهِ... لكنها كفّت عن أن تكون هروبًا.

صارت بحثًا.

وأنا... أخيراَ، بدأتُ أرى.

تأمل كلماته لمرة أخيرة ثم أمسك بقلمه مجددًا ثم وقّعها بكلمة واحدة أسفل:

« يونس العائد.»

تَمَّتْ بِحَمْدِ اللهِ | ٢ يُونْيُو ٢٠٢٥م.